صديق جديد

عن مجلة «تروستوري»

بقلم الأديب عمانوئيل بطرس ابراهيم

تطلعت من السيارة التي كنت أعمل فيها إلى أعلى، فوجدت — ماني بيترز — وعلى شفتيه ابتسامة بريئة، غير أن عينيه الزرقاوين — في هذه المرة — كانتا تشعان ببريق غريب

خالط عقله مسٌّ منذ أن كان في العاشرة من عمره، حينما حدث أنْ أصابه أحد رفقائه — دون قصد — بحجارة. ومما يحز في نفسي، أن أقول إنني كنت أكرهه بكل ما في هذه الكلمة من معان، وإن كنتُ أدعهُ يعبث بأدوات السيارة التي وضعتها في «جاراج» بمدينة «جيرسي الجديدة» وذلك لمعرفتي أن جنونه من نوع غير خطر، وأنه يحتاج إلى ما يمكنه أنْ يتسلى به، ولكنه أهاجني اليوم، أكثر من أيْ يوم سبق، فقد قضيت عشر دقائق في البحث عن أداة احتجت إليها لعمل مستعجل

تذكرت أن — ماني — أمعن في العبث أمس — كما يفعل غالباً — فكان السبب في هذا التأخير فأخذت ألعن الظروف التي خلقت لي مثل هذا المأزق الحرج، وأخيراً وجدتها

يستطيع الحدادون أن يقسموا على أنْ شيئاً لا يزعجهم مثل اختلاف مواضع الآلات التي يضعونها في أماكنها

لم أقل لـ «ماني» شيئاً، إذ أعرف أنْ نتيجة ذلك ستكون سيئة، وأنه لا يمكنه أنْ يفهم حقيقة الموقف؛ وإنْ فهم فلا يمكنه أن يتذكر ذلك إلا لمدة خمس دقائق. أقنعت نفسي بالتغافل عن أعماله، وأن أستمر على عملي، ولكن نيران الحقد، ولهيب الكراهية، جعلا مني مرجلاً ثائراً … !

نظرت إلى يدي القويتين، وأحببت أن أداعب بها رأس من تسول له نفسه العبث بأشياء تخصني، أما أن يكون هذا الشخص «ماني» فإنني لاأستطيع حتى رفعهما

استمررت في عملي، وأنا جد متعجب من سكان القرية. ترى ما الذي جعل «ماني» محبوباً منهم، وأنا أحمل له من البغض والكراهية ما ينوء بحملهما كاهلي ؟ ! وطبعاً لم يكن الذنب ذنبه، أحبه الناس أم لم يحبوه، وشعوري بالكراهية له ناجم عن عدم الإكبار للرجال الضعفاء وغير المرغوب فيهم، كرهي لكل عضو لا يقوم بعمله تمام القيام

تحملت منه ما لم يتحمله أهل القرية الأنانيون الذين قدت قلوبهم من الصخر، لا يعرفون قوياً ولا يرحمون ضعيفاً، وحبي له لم يكن إلا شفقة به، ورثاء له.

انتهيت من عملي، ولم أنتبه للشخص المشرئب بعنقه ليرى ما أعمل، مما سبب اصطدامي به، وبعدها

ألفيتنى محلقاً فيه . أما هذا الشخص فكان « مانى »

تملكنى الغضب الشديد ، فصحت به : بحق السموات ما الذى جاء بك إلى هنا ؟ !

ودفعته دفعة قوية لأزيحه عن طريقى .

ترنح إلى الخلف بمجرد اختلال توازنه ، وغارت عيناه الزرقاوان فى محجريهما متعجبتين ، سائلتين ، ولم أكن رأيتهما على هذه الحالة من قبل .

وثم اصطدم ببعض آلات مبعثرة هنا وهناك ، وسقط سقطة أفقدته الرشد .

زاغت عيناى واشتد بى الخوف ، وأحسست بفيض من العواطف يدفعنى إلى مساعدته فى القيام . وفجاءة ، رأيتنى مادا إليه يدى أساعده على القيام .

شعرت وأنا أنحنى إلى الأسفل أن يدى قد بللتا ، ونظرت إلى الأسفل فرأيت قطرات حمرا على الأرض على بعد ست وثلاثين عقدة منى .

حينئذ عرفت أن رأسه قد دق ببعض أدوات سببت شج رأسه ، فظننت أنه مات ، ولكننى شاهدت صدره يعلو ويهبط ، فعرفت أنه لم يفارق الحياة . لم أعر ذلك اهتماماً بادىء ذى بدء ، وطمأنت نفسى بأنه لن يلبث أن يستفيق . وبرغم ما كنت أتظاهر به من الهدوء ، كنت معتقداً أن إصابته خطيرة .

سرت نحو التلفون وطلبت الطبيب قائلاً : أصيب مانى بيترز ـ بحادث خطير فأرجو أن تأتى بسرعة . وعلقت « السماعة » ورجعت إلى ـ مانى ـ أسائل نفسى ماذا يمكننى عمله حتى يصل الطبيب . استطعت أن أقف النزيف ، ولكننى لم أعرف ما يجب أن أعمله أيضاً ، وهكذا جلست إلى جانبه . منتظراً مجيء الطبيب ، محاولاً جهدى ألا أفكر فيما سبب هذه الحادثة .

جاء الطبيب فى وقت مناسب ومعه خمسة رجال من أهالى القرية ممن أعرفهم . لقد كانوا فى بيت الطبيب ساعة أن أخبرته بما حدث . ولما سمعوا ما قاله الطبيب بشأن « مانى » أتوا معه ليعرفوا حقيقة ما حدث

وكما قلت قبلاً إن أهل القرية جميعهم يحبون « مانى » ما عداى فتأثروا لما أصابه

لم يتبس أحدنا ببنت شفة ، حتى فرغ الطبيب من الفحص ، فرفع إلينا وجهاً ممتقعاً ، فكان ذلك جواباً كافياً وفر على السؤال

تكلم بهدوء قائلاً : إن إصابته خطرة جداً ، فليخبر أحدكم مستشفى « آردين » ليرسلوا نقالة لحمله . ثم التفت وسألنى عن كيفية وقوع الحادثة فأخبرته بما حدث ، فأومأ برأسه فاهماً

غير أننى لاحظت الخمسة الآخرين ينظرون إلى مستغربين ، ورأيت واحداً أو اثنين ـ لا أتذكر ـ ينظر إلى متشككا

عشر دقائق مؤلمات مرت ، حتى وصلت النقالة . ولم تمض دقيقة أخرى حتى كان الطبيب ومانى فى طريقهم إلى مستشفى « آردين »

شعرت بحمى خفيفة ، وذهبت إلى حيث أستطيع أن أتنفس ، لأن هواء « الجاراج » يكاد يخنقنى . وقبل أن أصل إلى حيث أردت ، سمعت قائلاً يقول : فيلد ، دقيقة من فضلك ، لا يمكننى أن أدعك تذهب الآن

فالتفت قائلا : ولم ذلك يا جاك ؟ ألم تصدق ما أخبرت الطبيب به ؟

وظهر فى هذه اللحظة الأربعة الآخرون

ـ لا ، لا ، إن أحدا لم يصدق ذلك لما نعرف من مبلغ حقدك على « مانى »

تملكنى غضب مفاجىء . إنهم يظنون أننى فعلت ما فعلت عن عمد وإصرار

ظننتنى قادراً على إقناعهم بادىء الأمر بأن ما حدث لم يكن إلا صدفة سيئة ، أما الآن فإن ذلك لا يزيد مركزى إلا حرجاً

التفت إلى جاك قائلاً : تظننى حاولت قتل مانى ؟ أليس كذلك ؟ ! حسن ، ظن ماشئت ، فلست أبالى . والآن تفضل بالخروج وإلا أصابك ما لا يعجبك

فكان جوابه أن رفع يده وضربنى بقوة ، إلا أننى تحاشيت ضربته بحركة خفيفة من رأسى ، فاستدار حول نفسه وسقط على الأرض يتدحرج

فلما رأى الأربعة الآخرون ما حل بصاحبهم هجموا علىّ دفعة واحدة كالذئاب الكاسرة يريدون تمزيقى . وسمعت « لودين » يقول : آه ... هل تقدر أن تفعل بنا ما فعلت بمانى . إيه ؟ حسن ، إنك لا تقدر ، إننا لا نتصارع من أجل جائزة كما تفعل ، ولكننا سنلقى عليك درساً لن تنساه مدى الحياة .

دافعت عن نفسى دفاع المستميت ، ولكن ما حيلتى إزاء خمسة رجال أشداء ؟ نعم أسقطت اثنين منهم ولكن الباقين تمكنوا منى وضربونى ضرباً مبرحاً . وأخيراً وجدتنى ممدداً على الأرض مشرفاً على الإغماء

أذكر أننى سمعت « لودين » يتكلم بالتلفون طالباً نقالة أخرى ، وبعدها لم أكد أفقه شيئاً مما يدور حولى ، إذ أن الإغماء غلبنى

أفقت من الإغماء ، فرأيتنى على سرير أبيض من أسرّة المرضى ، ثم رأيت ممرضة منحنية فوق وكان إلى جانبها طبيب فعرفت أننى فى المستشفى .

سأل الطبيب الممرضة عن حالى ، فأجابته أننى أحسن من ذى قبل . ثم التفت إلىّ مستفهماً : ما الذى حدث ؟ !

فأجبته بصوت ضعيف : تشاجرت . ثم أردفت : هل كسر شىء ؟ !

تمتم الطبيب : تشاجرت ؟ وتابع فرحاً : آه ، لا ، لم يحدث شىء مما تعنى ، إنما كل ما هنالك رضوض لن تلبث أن تزول آلامها فيمكنك أن تخرج بعد يومين . ثم انصرف

أردت أن أسأل عن « مانى » ولكن حالتى كانت من الضعف بحيث لم أستطع معها أن أتكلم . سرى بى التفكير إلى الرجال الذين أشبعونى ضرباً . ومن الغريب أننى لم أشعر نحوهم بذرة من الحقد ، وكأن ما حدث لم يكن إلا خيالات وأوهاماً

غير أننى سعيد ، سعيد لأن عظامى لم يصبها عطب ، وإلا لكانت الدنيا لدىّ أضيق من سم الخياط . وأدركت أخيراً أن عملى كان جنونياً . تُرى من يصدقنى إذا قلت إننى دفعت «مانى» دفعة لم أبغ من جرائها قتله ؟ !

وفجأة وثب إلى ذهنى خاطر أذهلنى ، واصطكت أسنانى رعباً ، وهو ما سيكون شأن الشرط معى إن ... إن هو مات ؟ !

انقبض صدرى لهذا الخاطر المروع ، وكدت أصيح بكل ما فى حنجرتى من قوة . والفضل فى إنقاذى من هذا الموقف الممرضة التى دخلت فى تلك اللحظة فأزمعت سؤالها عن مانى ، قلت :

— إن لى زميلاً هنا اسمه « مانى بيترز » كيف حاله ؟

فأجابتني بصوت هادئ :

— إنه فى حالة سيئة ، وإنه الآن فى غرفة الجراحة لإجراء عملية جراحية خطيرة

فسألتها بلهفة :

— هل تدعيني أذهب لأرى ما يعملون ؟

ففغرت فاها متعجبة ، ولكنها لم تلبث أن استعادت ثباتها وتعهدت بأنها ستفعل ، وتركتني وانصرفت ...

قضيت مدة أتقلب على فراش الألم خائفاً مذعوراً مما سيحدث لى ولمانى . لم أكن أشتكى فى ذلك اليوم من شىء ، غير أنى كنت منزعجاً مما سيحدث لى

وفى ذلك المساء أقبلت الممرضة قائلة :

— إن الأمل فى نجاح العملية كبير جداً ، ولو أنهم لم يخبروا أحداً ، وإننا سنعرف عنها فى الصباح كثيراً

كنت أريدها أن تقول إنه سيعود كما كان دون أن يكون فى قولها هذا ذرة من الشك . لذا بقيت فى حيرة من أمرى ، مما أثر فى حالتى وأخّر شفائى

وفى صباح اليوم التالى رأيت الممرضة مبكرة على غير عادتها ، فأحسست أن دقات قلبى توقفت ، وأن الدم قد جمد فى شرايينى . وتمثل أمامى بعين الخيال مانى ممدداً على السرير جثة هامدة . يالله من منظر مخيف تقشعر منه الأبدان ! وسألتها : ما هذه الضوضاء ؟ هل هو مانى ؟ هل ... هل مات ؟

— لا ، ولكنه يسير من سيىء إلى أسوأ ، وقد سأل عنك ، فهل باستطاعتك أن تذهب إليه ؟.

لم أجبها على سؤالها ، بل أسرعت فى إلقاء الأغطية عنى ، وحاولت القيام فلم تسعفنى أعضائى المنحطة ، فجلست على مضض

حاولت أن أسترد قوتى ، غير أن رأسى ، كاد ينفجر فأسرعت الممرضة نحوى ، ومددتنى على السرير بهدوء ، ثم قالت بقلق ظاهر : سآتى بنقالة لحملك ، فأخبرتها أننى قادر على المشى على قدمى ، إذا هى ساعدتنى . ففعلت ، ووصلنا إلى غرفة « مانى »

انحنيت فوقه ، وسألته عن حاله ، فأجابنى وفى عينيه تلك النظرة البريئة الطاهرة : إن رأسى يكاد ينفجر ، ولكننى أحببت أن أراك حين علمت أنك أصبت أنت أيضاً ، ورغبت أن أراك سليماً معافى.

شعرت بالدموع تجرى على خدىّ حارة غزيرة. يمكن أن يكون ممثوهاً ، ولكننى لم أر قلباً بريئاً طاهراً مثل قلبه .

عرفت أنه لم يتذكر ما فعلته به ، ولا كيف كنت أعامله دائماً .

وشعرت لأول مرة فى حياتى منذ أن كنت طفلاً ، بشوق إلى الصلاة ، فأخذت أصلى ، وأصلى بحرارة . صليت وابتهلت إلى الله ، من أجل ـ مانى ـ ليشفى ، ولأستطيع أن أدعه فى «الجاراج» . وكأن دعائى أجيب ، إذ أن — مانى — ترك المستشفى بعد شهر منذ دخوله وقد عاد كما كان ، لم يتغير .

إنه الآن يقضى جميع أوقاته إلى جانبى فى الجاراج ، وإنه لم يعد يحدث لى المتاعب ، إننى أرغب أن يكون دائماً هناك ، لأنه يزيل وحشتى فى وحدتى ، وقد جعلنى أشعر بالشفقة والحنان . لكل من يكون مفتقراً إليهما .

عمانوئيل بطرس ابراهيم